زقزقة العصافير

العتمة تريح أعصابي، ولكن تؤلمني إذا ما رافقتها زقزقة العصافير.

أشعل آخر سيكارة وأنا أراقب تنفس وشخير أولادي، وصوت الريح، وهذا التنقيط المستمر على طشوت وطناجر منشورة في أرض الأوضة، نتيجة هطول الأمطار المستمر على الدنيا منذ المساء، يثير بارتطامه على ألواح الصفيح إيقاعات مرعبة، لم أكن أسمعها قبل انقطاع التيار الكهربائي، إيقاعات تذكرني بأيام اعتقالي، وكأننا جالسون في بئر ماء ينقط في كل مكان، تذكرني كيف كنا ندخن هذا النوع الرديء من الدخان، وكيف كنا نسوي أمورنا لكي يظل متوفرًا باستمرار، فما علينا والظرف هذا إلا أن نتضامن ونتساعد لنوفر شفطة شفطة لكل منا عند الصباح، ورغم أنه أردأ الأنواع وأرخصها، فقد كان نادرًا في كثير من الأوقات.

أستغرب أصوات زقزقة العصافير وأنا أتأمل طول آخر سيجارة أملكها، إنها أغلى ما أملك، أعب نفسًا قويا، أحاول أن أرسله إلى آخر الرئتين، يجب أن يظل نصف السيجارة على الأقل إلى الصباح. أطفئها، أرممها جيدًا، وأخبئها تحت المخدة. أتنهد، أستلقي، أحاول أن أغمض عيني.

ما صوت زقزقة العصافير الحلو الناعم هذا! إلا أنه قاس ويأتي شاذا وغريبًا، باقي الأصوات عادية جدا، حيث لا يهدؤون طيلة الليل، تظهر أصواتهم، مسبات وشتائم، وأصوات بنادقهم وارتطام الأحذية العسكرية الضخمة على بلاط الممر وأصوات السلاسل والمصاريع ومطارق وألواح خشبية تصطفق، وصراخ المعتقلين الذين يأكلون نصيبهم من التعذيب، وغيرها من الأمور التي أصبحت مألوفة جدا منذ

أن دخلت، ولم أعد أستطيع أن أعيش من دونها. فمن يتعرض لتجربتي في زنزانة معتمة للغاية، تصبح حاستا السمع والشم قويتان جدا، فهما تفسران الأشياء واضحة في مخيلتي وكأني أراها، حتى أنني نسيت فائدة النظر والألوان والأشكال، لطول الوقت الذي قضيته، دائمًا أمضي وقتي في هذه العتمة وألهو بترتيب الأشياء على هواي. ولا أسمع من أصوات الحيوانات إلا صوت الجرذ الذي يقاسمني بحقارة المتر المربع الذي لا يكفيني لأتنفس، أما أن يأتي صوت زقزقة عصافير فأمر غريب فعلاً وفي غير محله، وربما كان مستنكرًا، وإني لأعجب كيف سمحوا له بالدخول.

يتناهى لي صوت أحذية قادمة، أشق باب إدخال الطعام السفلي قليلاً وأرهف أُذُنَيَّ؛ رجلان، أتجرأ وأفتحه أكثر لأدقق في الصوت... لا بل هم ثلاثة، وثالثهم لا يلبس بوطًا عسكريا. يتصاعد صوت قدومهم، فأنكمش وأدعو إلى الله ألا يكون قدومهم إلى زنزانتي، أدرك لحظة تصاعد صوت اقترابهم أنهم آتون إلي، فأسلم أمري إلى الله، ولا يلبثون أن يقفوا بباب زنزانتي، يفتح الباب، فأعتدل خائفًا، تمتد يد ضخمة إلى ياقة سترتي وترفعني فأرتفع حتى أقف في مواجهة سجان بحجم بغل ثم يتركني فأقع على الأرض، ويوجعني خصري، أجد نفسي محاطا بأقدام السجانَيْن، يرفعاني كمن يرفعان دجاجة ويمشيان بي، يدفعاني، وأمشي مرغمًا بين البغلين خلف شيخ يحمل مصحفًا عبر الممر الطويل المعتم، ننعطف يمينًا، -ترى أين رأيت شيئا كهذا؟ أين؟- يفتح حارس الباب تلقائيا، فأنبهر من الشعاع المنبعث من الخارج، الوقت ليس ليلاً كما حسبت بل صبحا، ألمح الجنود المسلحين المصطفين حول الساحة مثل التماثيل، فيما يقودني الرجلان البغلان صوب المنصة المنصوبة في وسط الساحة وكأنها مسرح صغير صنع على عجل.

هه! كل هذا المسرح من أجلي أنا؟!

وقد وضع فوق المسرح كرسي، وثبتت فوقه عارضة خشبية تدلى منها حبل سميك معقود في نهايته على شكل دائرة يمكن لرأس إنسان أن يدخل بها بسهولة.

يا إلهي! ما هذا؟! لاه! مشنقة؟! إنها مشنقة! ....

كل ذلك وأنا لا زلت مستغربًا أصوات زقزقة العصافير.

يقترب مني الشيخ، يفتح المصحف، ثم يأخذ بتلاوة آية قرآنية، ويطلب من الله أن يسامحني على ذنبي، كما يبدأ بتلقيني نص التوبة على ما اقترفته من ذنب عظيم لا أكاد أعرفه حتى

كل هذا المسرح من أجلي أنا؟!

وما أن أبدأ بالاحتجاج حتى تهاجمني قبضات الماردين، وترفعني مثل صوص وتثبتني فوق الكرسي بعد ربط يديَّ بحبلة متينة، يدخلون في رأسي كيس طحين يجعلني أسعل بشدة، ثم يضيق الكيس على وجهي ويضيق أكثر وأكثر من عند الحنجرة حتى أشعر بالاختناق، ولا يسعني الوقت لأن أصرخ، فأشهق لأن الكرسي هرب من تحت قدمي، تر تر تر ر ر ر ر، يرسخ في أذني صوت تكسر حنجرتي وعظام رقبتي.

شنقوني!

أصرخ، أرفع رأسي عن المخدة، ألوحه هنا وهناك، أتفحص رقبتي المكسورة، أتحسس حنجرتي، أدرك أني كنت في منام، أنهار على الفراش من جديد أنفاسي تكاد تنقطع، فأتنهد مليا، أتناول نصف السيكارة المتبقي من تحت المخدة، أشعلها لتهدأ نفسي قليلا، وأدخن بمتعة.

غير أن زقزقة العصافير هي المستمرة، ولم تنقطع حتى الآن!

أقف، أتجاوز أجساد أولادي وأذهب إلى الحمام، وبمجرد أن أفتح الباب تهاجمني رائحة بول واخزة، أدخل بسرعة، أتبول، يقطع تبولي صوت رجل يأتي من الأعلى، أربط زر بنطلوني بسرعة، يعلن الرجل أنه ألقى القبض علي أخيرًا، أدرك أنه رجل مخابرات وأني وقعت فعلاً. ما هذا التغيير؟ لأول مرة أعرف أن حمام بيتي بلا سقف! يدخل الحمام رجلا مخابرات بحجم بغلين، يضعان القيد في معصمي ويأمرانني بالمسير أمامهما إلى بيت خالتي، مجرد فنجان قهوة وأعود، أتوسل إليهما حتى أخبر زوجتي، يرفضان، أطلب متوسلاً أن أكمل تبولي على الأقل، فيضربانني ويرفسانني ويدفعانني أمامهما، لا شيء يزعجني أكثر من زقزقة العصافير، يا لها من مزعجة! توجع أذني، إنها مؤلمةً أكثر من أي شيء آخر، يدفعني الرجلان بعنف، وقبل أن نخرج ومن البيت يضعان بطانية صوفية وسخة فوقي، ثم يقودانني، أمشي أمام لكماتهما ورفساتهما في الحارة، فتأتي أصوات النساء والرجال العجائز، يشمتونني على هذه الآخرة التي صرت إليها، "هذه عاقبة من يحشر أنفه في عش النمل! هذا مصير من يتجرأ وينكش فطيرة الدبابير! ولا نكاد نصل إلى السيارة حتى أبادر بالسؤال عن سبب اعتقالي والتهمة الموجهة إلي، فيجيبني الرجل بلكمة تجعل الدم يسيل من أنفي والآخر بلكمتين بسرعة البرق تكسران ضلعين.

تمشي بنا السيارة أكثر من نصف ساعة في الشوارع ولأني أعرف شوارع الشام جيدًا، ومتمرس على تدريب حواسي الأخرى، فقد استطعت في ربع الساعة الأولى أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، وفي أي طريق نمشي، أما بعدها لم أعد أعرف شيئًا، خاصة وأن الرجلين أخذا يلهوان بلكمي وضربي.

يسحبونني من السيارة حيث أصعد أمامهما على درج من خمس درجات، ننعطف بعد تسع خطوات إلى ممر طويل يرمونني في آخره بين عدد من المعتقلين مثلي بركلة عنيفة؛ عرفت أنهم معتقلون دون أن

يزيلوا البطانية عن رأسي، عرفتهم من تنفسهم المتقطع والمخلوط بالسعال المتواتر، نتيجة البطانيات المغبرة الوسخة التي يخنقونهم بها مثلي تمامًا.

أول نور رأيته، بعد نور سيجارتي التي أتيت عليها كلها، نور أتى من عمق الغرفة، حيث رماني رجل مثل البغل وأزال البطانية بحركة واحدة، لم أستطع أن أميز المحقق أبو النظارات السوداء، فقد ظل النور مرسوما على شبكية عينيَّ فترة طويلة مما دعاني إلى إغلاقهما، يأتي رد المحقق برفسة على وجهي، إنها الدرس الأول، أما التهمة فتهريب الآثار! تهريب الآثار؟! تلقيت على سؤالي درسًا ارتداديا سريعًا، أو رفسةً سريعة.

-اعترف أين تخبئ الآثار!

-يا سيدي عن أي آثار تتكلم؟! لا أكاد أستطيع أن أخفي آثاركم عن جسمي!

لم أستطع إلا الصراخ، عندما لُقِّنْتُ دولابًا لن أنساه، ولقد كان الجلاد الذي يلقنني الدولاب غِرًّا، لم يتمرس بعد على تلقين الدواليب، فلكي يرضي سيده الذي يتلذذ بصراخ المعتقلين، يستخدم جهدًا مضاعفًا قد يؤذي، غير أني أنا المتمرس على أكل الدواليب بكل أشكالها، لن أسمح له ولغيره بإيذائي، فكان ذلك يضطرني إلى بذل مزيد من التركيز والجهد حتى أخرج من الدولاب بأقل الخسائر الممكنة، وكلما كان صراخي واستنجادي عاليًا، كانت همته تخف، وأنا أراقبه وأراقب حركة جسمه والكابل فأميل بقدمي حسب المطلوب، وغالبًا ما كانت تنجح حساباتي. أيه! بحق إن الجلاد المختص بتلقين الدواليب والذي يتقن عمله جيدًا رحمة! رحمة ما بعدها رحمة.

غير أن ما يثير قلقي واستغرابي حتى الآن، زقزقة العصافير التي لا تكاد ينتهي، ولا تكاد حدتها تخف وتريحني أخيرًا، حتى أثناء الدولاب وما بعد الدولاب عندما كنت مرهقًا للغاية، ظل بحدته نفسها.

عاد الضابط إلى استدعائي، وأول ما وجهه من أسئلة عن المصاري أين أخبئ المصاري. آخر تهمة كنت أتوقعها أن أكون مخربا للأمن الوطني، سارقًا لاقتصاد البلاد! فلا يكاد أولادي الذين لا يتجاوز أكبرهم الرابعة يأكلون، اسأل عني يا سيدي أرجوك، ما لي وما للاقتصاد والأمن؟ أخشى أن أموت ليس لأني أحب الحياة، لا، بل لأمراض فيَّ مزمنة، تصور يا سيدي أني أحوي أمراض الناس كلهم، تصور أن أموت وأنا أملك كل هذه الأمراض؟ ستصل رائحة جثتي النتنة إلى مالطة على أقل تقدير. أرجوك يا سيدي، فما لقيته في حياتي يكفي لمحو ذنوب الناس، كل الناس على هذه الأرض، فانظر في أمري أرجوك.

استمع إلي الضابط حتى الأخير هذه المرة، وهو جالس على جانب الطاولة ثم وقف وذهب إلى الكرسي جلس وهو يأمر العسكري أن يأخذني إلى كرسي الكهرباء، حتى يعيدني عندما أعترف، فانبطحت عند قدميه أتوسل إليه ألا يفعل لأني سأعترف، سأعترف بكل شيء. جلست على كرسي الاعتراف. سألني هل هربت الآثار؟ نعم! هربت الآثار! جاوبت. سألني كيف؟ ومن هم المتآمرون معك؟ فكرت للحظة ثم بدأت أقص عليه حكاية ألفتها مباشرة شبيهة بقصة فيلم رأيته من زمان. غضب الضابط، ورفسني على وجهي، وقال متوعدا: عدت إلى المراوغة، ها؟ ثم أشار لعسكري أن يأخذني، فرحت أتوسل من جديد، غير أن التوسلات لم تعد تجدي نفعًا لأني حُمِلْتُ كذبابة، ورُبطت إلى الكرسي الكهربائي وما زالت أصوات العصافير تزداد في أذني وفي وعيي، ربطوني إلى الكرسي بشكل جيد، فسمعت صوت زوجتي هذه المرة يناديني: "يا رجال ولك شو صار لك؟! خود، خود اشراب مي"

ووضع الرجل المجس على صدري فسرى في جسمي تيار كهربائي قوي، في اللحظة التي أحسست بها بيد زوجتي تمتد إلى صدري.

أصرخ، في حين تنتفض زوجتي وتقع على الأرض على بعد مترين مني، من شدة التيار الذي سرى في جسمي، أستيقظ، ولا يزال التيار الكهربائي يرقص على أعصابي أنظر إليها مستغربا، بيد أنها تبتعد عني خائفة، وتستغرب كيف أن التيار الكهربائي مقطوع، وأخزن بجسدي طاقة كهربائية تكفي الحي كله.

أفكر في كلامها وأقارنه بتهمة الضابط... لربما! لربما لم يكن مخطئا في اتهامه لي عن سرقة اقتصاد البلاد.

أسقط على فراشي منهكا من الدولاب وكرسي الكهرباء، أرفع المخدة أجد نصف السيكارة، وأفرح، أفرح لأني استطعت أن أدخنه مرتين، أشعلها وأشفط بقوة أوال أن أتلذذ بطعمتها برفقة أوجاع جديدة متنوعة وموزعة على كل أنحاء جسمي؛ في حنجرتي ورقبتي وأنفي المهشم وفي صدري وأضلاعي المكسرة، بينما زقزقة العصافير تصدر ضجيجًا مضاعفًا في بطون أولادي.